

مؤسسة الشيخ عمي سعيد ثقافة . تربية . تراث

الأيام الدراسية العلمية:

من الشيخ عمي سعيد بن علي الجري [ت 927 هـ / 1521 م]
إلى الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد [ت 1425 هـ / 2005 م]

المحاضرة الرابعة:

الأسس والمرتكزات المبلورة لأفكار الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد التربوية

إعداد:

أ. عمر بن قاسم موسى وعلي⁽¹⁾

1- الأستاذ: عمر بن قاسم موسى وعلي، ليسانس في العلوم الإسلامية، أستاذ معهد عمي سعيد للأدب العربي والعلوم الإسلامية، أستاذ الفقه بقسم التخصص في العلوم الإسلامية التابع لمؤسسة الشيخ عمي سعيد، عضو حلقة العزابة بغرداية.

باسم الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنار طريق الحق للسالكين ، ويسر أسباب الاهتداء للذين هم لربهم يرغبون ، أحمداه حمدا يليق بجلاله وعظيم سلطانه .

وأصلي وأسلم على النبي المصطفى صاحب الكمالات ، قائد جحافل المتقين ورائدهم إلى خير معاشهم ومعادهم... بعثه الله نورا يستضيء به حاملو لواء العلم وتهذيب النفوس وتقويم اعوجاجها ، والذب عن حياض الإسلام .

فاللهم صل على نبينا محمد أعظم من ربّي وأرشد ، أروع قدوة في الإيمان الراسخ والجهاد المستميت وإعداد الأفاضل ، وسلم تسليما كثيرا ، وبعد :

حضرات أصحاب الفضيلة ، أيها العلماء والأساتذة : الرجال العاملين الناصرين للقضايا العادلة في مختلف الأسلاك القضائية والإدارية وغيرها -أيها المؤمنون أيها المؤمنات- أحدثكم في هذه الكلمة المتواضعة عن رجل فذ من طراز الرجال ذوي النفوس العالية الذين وهبوا حياتهم وقواهم وأموالهم لنصرة الحق والدفاع عن المستضعفين ، هذا الرجل الذي سخر ما حباه الله سبحانه به من مسبوغ النعم لما يعود بالخير والنفع على أمته ووطنه ، سخر لذلك لسانه وفكره ووقته... ولم تكن أياديهِ مقصورة على بقعة ضيقة لا تتجاوزها ، كما قد يظن البعض ، ولكنها قد تجاوزت حدود **نفيه** الزمانية والمكانية ، لقد علم أن قضايا بلده الصغيرة من حيث الحجم لا تنصر ولا تخدم إلا بشد اليد في اليد للدفاع عن قضايا الوطن الكبير ، فهب مسرعا لمحاربة الجهل والتخلف وتصفية الأجواء المتكدرة بين الجماعات والأحياء والمدن ، وحارب الاحتلال الأجنبي لوطنه بلسانه وأمواله ، فكان من السابقين إلى تصفية وطنه الجزائر من الاستعمار الفرنسي ، ولا عجب فقد تزامنت ذكراه باحتفال الجزائر بذكرى غرة نوفمبر المجيدة .

كلمتي -أيها الإخوة- عنوانها : الأسس والمرتكزات المبلورة لأفكار الشيخ حمو بن موسى عمي سعيد التربوية ؛ وجاء اختيار هذا العنوان ليشير إلى بعض الحقائق التي لا مناص إثباتها :

1. إن الشيخ حمو سعيد أعجوبة من خلق الله سبحانه وَعَلَيْهِ : أنعم الله عليه بنعم سابغة وظفها لخدمة دين الله ولفضاء قارب غيره ، متجاهلا ذاته ونفسه ، وقد وجه عنايته إلى ميدان التربية والتكوين بالوسائل الممكنة المتاحة ، وطف أمواله لمحاربة المستعمر الغاشم الذي يسعى لطمس معالم الشخصية المسلمة الملتزمة .

ووظف جهودا في الوعظ والإرشاد وبناء الشخصية بالسلوك القديم والخلق المتزن يصدع بالحق من فوق منبر المسجد، وفي مختلف المناسبات والأعراس، أقنع مرافقيه من العزابة والأعيان بتعديل بعض النظم المألوفة، لتخصيص لحظات التوعية وربط الأمة وشبابها بدينها ومبادئها.

ووظف رجالا وأموالا لبث العلم والتشجيع على سلوك دروب، لم يفوت فرصة سانحة لذلك، انطلاقا من توجيه بعثات للدراسة هنا وهناك، إلى تأمين الجانب المالي لبعض الطلبة لطلب العلم، وصولا إلى مساهمة في بناء المدارس وتشبيد المعهد والإنفاق عليه.

2. إن أفكار أي إنسان تبدأ في الظهور صغيرة ساذجة ثم تتطور وتتلور شيئا فشيئا، وإن الدافع إلى تبلورها ازدياد الوعي الثقافي لدى الشخص، فبقدر ما تتوسع مداركه العلمية بالمطالعة ومجالسة العلماء، وبقدر اطلاعه على تجارب الآخرين وإنجازاتهم بالمجالسة أو الأسفار تتبلور أفكاره وتنضج.

والغريب أن الإمام حمو عمي سعيد نشأ والده تنشئة متواضعة، لم يزاحم بركبته العلماء والفقهاء وطلاب العلم إلا تسعة أشهر في بداية تحصيله العلمي، ثم وجهه والده إلى العمل في الفلاحة، فكان يحفظ سورا من القرآن الكريم وهو يجوب زقاق الزجر يتبع أدبار الدواب لسقي النخيل والأشجار.

ثم إن والده ضيق عليه كما يذكر في أحد الأشرطة التي سجلها بعض طلبة العلم عن مسار حياته، بصوته، يقول: إنه إذا صاحب والده إلى دار سكنهم بالمدينة القديمة (القصر) أغلق عليه أبوه باب المنزل، ليمنعه بذلك من مخالطة الصبيان أمثاله. ومع ذلك فقد حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، وتولى إمامة التراويح ما يتجاوز العقد من الزمن.

كما كانت مواقفه في الحياة تدل على سعة أفق وحنق وحسن تدبير، يكلل كل ذلك إيمان راسخ وتقوى وغيره جاحمة على حدود الله تعالى. وهو الرجل الذي يحارب عن تبصر وسائل الإسلام خفيفها وثقلها، التي أخذت تنال من طهارة الأفراد وتبث الأفكار الدخيلة التي بدت آثارها سيئة فيما ظهر وما بطن.

وهو كذلك الرجل الذي يأخذه الحرج الشديد إن اضطره انحباس لسانه إلى التفوه بكلمة فرنسية مهشمة في ثنايا دروس وعظه، بل يأخذ الظن سامعه إلى أنه قد نطق بها معوجة عن عمد، كأنه يلوك هذه اللغة لحقده الدفين على المحتل الغشوم.

وهو كذلك الرجل الذي لا تعرفه مكتبة الكتب العلمية المتخصصة في التربية والدعوة وقيادة الجماهير، بل ولا تعرف المجلات السيارة ولا الجرائد اليومية الخيرية.

ولا يعني هذا الكلام أنه كان في معزل عما حوله ، كلا ، فقد كانت له عيون هنا وهناك ، وأذان نافذة إلى عمق المجتمع ، بل إلى عمق وطنه ، يجالس كبار السن ويجالس العلماء وطلبة العلم ، اصطفى من المجتمع أناسا لهم إلمام واطلاع ينقلون إليه عصارة مطالعاتهم وتجاربهم...كما كانت له عين على قضايا النساء وهمومهن شفاهة وهن يسألن الشيخ عن فقه صلاتهن وصومهن وأحكام الزواج والطلاق. إضافة إلى خبرته التي اكتسبها في سعيه الحثيث لفض النزاعات الأسرية والمهنية.

3. إنه الرجل الشيخ حمو عمي سعيد حباه الله الغني الوهاب بمحاسن جمّة ، نرى لزاما دراستها واستلهاها العبر منها ، ولا نضع الرجل في صف الملائكة والمعصومين ، فقد كانت له هنات وهفوات شأن العاملين ، وأي علام لا يهفو ، وأي جواد لا يكبو...بل إن النقص هي السمة البارزة للبشر ، أو على حد قول الله تعالى : "بل أنتم بشر ممن خلق" ولم يسلم من النقد والتخطئة إلا الكسالى والقاعدون. أسأل الله أن يلهمني وإياكم الصدق في القول والإخلاص في العمل.

1- عوامل القوة في التأثير التربوي:

يهب الله سبحانه للعلماء الربانيين والدعاة إلى سبيل ربهم نورا يشيع بنور القرآن والذكر الحكيم ، فيقذف الله سبحانه في قلوب الأتباع محبة لهم وطمأنينة لتوجيهاتهم. وإذا اقتبس الداعية أنوار كلامه من كلام الله جل وعلا الذي يعرف الثبات والاستقرار لأن الله حفظه من التحول والتغير ، ترسخ قبوله وعمر طويلا.

أما الدعاة الذين يبنون أمجادهم على إلهاب عواطف الناس والتأثير على عقولهم بمظهرهم المتأنق وكلامهم المعسول الذي يزرع الأمانى وينسي الهموم ، وهم بمنأى عن الحقيقة التي يريد الله جل وعلا أن تستقر وتثبت ، وقد يضللون عقول الناس لخوفهم من الصدع بالحقيقة إذا كانت مرة.

هذا المنهج الخاطئ الذي يسميه رسول الله ﷺ الغش للرعية ، منهج منبوذ ، لا تلبث الكلمات الرنانة أن تفقد جرسها ، والمظاهر البراقة أن تفقد وهجها ، ثم تتعري الحقيقة ، ويظهر هذا الداعية كلابس ثوبي زور ، والعياذ بالله ، تدير الرعية له ظهرها ، وتقلب له ظهر المجن ، وتتركه قابعا في زاوية النسيان.

يقول الأستاذ الداعية أحمد الراشد في كتابه "منهجية التربية الدعوية" ص16 :

"إن قوة التأثير التربوي للكلام وسرعة ظهوره في المقابل تخضع لمؤثرات عديدة ، منها :

الصفات الطبيعية التي يملكها المربي والتي خلقه الله عليها ، كمدى الذكاء والشجاعة والصبر ، والغضب وكذا ما يتبع هذه الصفات كاللباقة وقوة الشخصية.

إن الذكي الصبور الشجاع اللبق الذي لا يغضب أقدر على التربية من صاحب الذكاء القليل الجبان الغضوب الذي لا يصبر وليست عنده لباقة والأمر الظاهر".

وأشار الراشد إلى ندرة معدي الدعاة الذين يتمتعون بهذه الصفة الحيوية الدافعة ، يقول :
"ولكن تتبع أحوال المجتمعات واستقراء مستويات رجالها يرينا أن أصحاب الصفات الطبيعية الجيدة أقل بكثير من أصحاب قابلية التأثير."

وكان هذا المعنى هو الذي أشار إليه النبي ﷺ حين قال :

"تجدون الناس كإبل مائة ، لا يجد الرجل فيها راحلة"¹.

والراحلة القوية السهلة السريعة السير ، وهي نادرة الوجود ، فذكر شارح الحديث أن النبي ﷺ يشير بذلك إلى ندرة أصحاب المعدن الجيد.

سار الرجل الشيخ حمو عمي سعيد إلى هذه الغاية ، وسلك هذا الطريق ، فقد كان تعلق العامة رجالا ونساء به شديدا ، يصغون إليه باهتمام ، وما من شك استمد ذلك -بتوفيق الله تعالى- من تركيزه على توجيه العقول إلى ما في كلام الله العزيز من أسرا ، وشد قلوبهم إلى الوحي ، فلا تخلو دروسه من استشهاد بآيات من القرآن الكريم ، بل يمتاز بقدرة عجيبة على استحضر الآيات المتفرقة في سورها التي يجمعها موضوع واحد.

كما كان لصوته الدافق وحماسه المتقد وغيرته وحضوره المتميز في مختلف المحطات التي يتطلب المجتمع حضوره بينها أثر يبين في درجة القبول التي يكنها العامة نحوه.

2- الإشراف والتوجيه في عصر تتزاحم فيه الأفكار:

ما أصعب أن ينتقل المجتمع من عهد البداوة إلى عهد التمدن والانفتاح... فقد عرفت المجتمعات محنا دامت آثارها سنين وهي تتجرع ويلات لما أخطأت المنهج المعتدل في الخروج من الزجاجة.
وكم تكون فرحة الناس إذا قاد مسيرتها عالم راسخ أو رجل مستبصر في مثل هذه الأجواء التي يختلط فيها الحابل بالنابل والمقبل بالمدبر.

إن الذين يتولون قيادة الأمم ، إذا كتب على مجتمعهم التحول من حال إلى حال تجدونهم فريقين :

1- رواه البخاري ومسلم فيما ذكره صاحب التاج الجامع للأصول 63/5 (من منهجية التربية الدعوية ص16).

❖ منهم من يفضل أن يلزم أتباعه وأفراد مجتمعه الانكفاء على النفس ومنع رياح التغيير فيسعى إلى إحكام غلق النوافذ، والتخويف من كل دخيل ولو ظهرت منافعه عياناً، يظن هؤلاء الناس أن هذا المنهج هو الوسيلة الوحيدة لحفظ التوازنات، وحماية المجتمع من التزلزل وانفلات القياد.

وهذا المنهج لا ريب أنه خاطئ مجج، تأباه العقول السليمة، نفر منه القرآن الكريم إذ اعتبره سلاح من أفلس من الحجة "قال للملا حولة إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره"

❖ ومنهم من يرى أن الحكمة تقتضي تعرية الحقائق، والتميز بين الأصول والفروع، وبين الثوابت والمتغيرات، توكل مهمته إلى علماء راسخين مستبصرين بهدي الله سبحانه، تعمق جذور الأصول في العقول والأنفس، وتربط القلوب بفاطرها سبحانه، ليكون إيمانها هو الرادع لها عن اقتحام الآثام...ثم تتولى السلطة ردع من يجاهر بالمعصية أو إشاعة الفتنة.

أما أن تستوي الثوابت والمتغيرات في موازين القوة، ويترك المجتمع في سفينة الهلاك ترمي بها الرياح العاتية يمنة ويسرة، وتزرع في القلوب الأحقاد، فذلك سبيل من لا دين له.

يقول صاحب كتاب "منهجية التربية الدعوية" في الفصل الذي سماه "اختلاط الترتيبات":

"إن العمليات التربوية ليست عمليات ميكانيكية، إذ لم تبدأ في وقت واحد خلال هذا التاريخ البشري، ولم ينطلق المربون في لحظات واحدة كما ينطلق المتسابقون في ساعة السباق لي تجربوا جهودهم التربوية، لمعرفة الأقدر منهم على إقناع الآخرين، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى - في الغالب - ما من مرب يستطيع أن يحجز كل وقت تلاميذهم ليريهم، وإن ضرورات الحياة وطلب العيش تجعل التلميذ أعجز من أن يهب لقائده ومربيه كل وقته.

فمن هاتين الناحيتين وجدت ظاهرة "اختلاط الترتيبات" وصار المجتمع خليطاً عجيباً من أشخاص تتنازعهم تربيـات عديدة، فإن الدرجات العديدة التي عليها أولئك الذين تتنازع التربية الجديدة عندهم مع التربية القديمة، كل ذلك جعل المجتمع وكأن لكل عضو فيه تربية خاصة معينة، أو أن أصحاب السمـت الواحد هم عدد قليل.

ولا شك أن هذه الظاهرة في اختلاط التربيـات تحد كثيراً من تأثير الجهود التربوية، ولذلك لجأ المربون إلى علاج هذه الظاهرة ووضع الحلول لها:

- من هذه الحلول التخصص في استخدام آلات التربية ، لعدم استطاعة القوة البشرية عند الفرد الواحد البراعة في استخدامها كلها ، وهكذا ظهر في جماعة المربين الناشرون البلغاء والشعراء المؤرخون والممثلون المسرحيون والمغنون(؟!)... وغيرهم طلبا للبراعة والإتقان.
 - ومن هذه الحلول التربيات المرحلية فقد وجدوا أنهم بحاجة - بسبب من انتصار إحدى التربيات المخالفة وطغيانها على غيرها - إلى أن يركزوا على مجال واحد يكون أكثر تأثيرا في إبطال مفعول التربية المنتصرة ، أو يكون أضمن لاستمرار التلاميذ في صراعهم مع التربية المنتصرة الغالبة ، ويمدهم بقوة تثبيت.
 - ومن هذه الحلول التركيز على المنظر العملي لما وجدوه من زيادة تأثيره على تأثير الكلام.
- وقد ورد في القرآن والسيرة ما يشير نوع إشارة إلى أن المشاهدة أبلغ في التربية من الكلام المجرد ، قال ابن القيم : بين العيان والخبر فرق ، وفي المسند مرفوعا "ليس الخبر كالعيان" ولهذا لما أخبر الله موسى أنه قد فتن قومه ، وأن السامري أضلهم ، لم يحصل له من الغضب والكيفية وإلقاء الألواح ما حصل له عند مشاهدة ذلك.¹
- ومثله طلب إبراهيم عليه السلام اطمئنان القلب بالنظر حين قال : "رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي"
- وقريب من هذا ما ورد في السيرة أن الرسول ﷺ لما فرغ من كتابة هدنة الحديبية مع موفد المشركين سهيل بن عمرو قال لأصحابه : قوموا فانحروا واحلقوا وأحلوا - أي من الإحرام حين نواوا العمرة - فلم يجبه أحد إلى ذلك ، فرددها ثلاث مرات ، فلم يفعلوا - أي لشدة حزنهم لما رأوا في ظاهر شروط الهدنة ضيما للمسلمين - فدخل على أم سلمة وهو شديد الغضب فاضطجع.
- فقال : مالك يا رسول الله؟ مرارا ، وهو لا يجيبها.
- ثم قال : عجبا يا أم سلمة ! إني قلت للناس (قوموا فانحروا واحلقوا وأحلوا) فلم أحد من الناس إلى ذلك ، وهم يسمعون كلامي وينظرون في وجهي.
- فقال : يا رسول الله انطلق أنت إلى هديك وانحره ، فإنهم سيققدون بك.

¹ - مدارج السالكين 388/3 وذكر محمد ناصر الدين الألباني صحة حديث الإمام أحمد الوارد في كلام ابن القيم (من منهجية التربية الدعوية ص19)

فاضطبع بثوبه -أي أدخله تحت إبطه الأيمن وغطى به الأيسر- وخرج، فأخذ بالحربة ويم هديه، وأهوى بالحربة على البدنة رافعا صوته، باسم الله والله أكبر، ونحر، فتواثب المسلمون إلى الهدي، وازدحموا عليه ينحرونه حتى كاد بعضهم يقع على بعض.²

إن الرجل الشيخ عمي سعيد يصح أن يقال إنه كان من المخضرمين، عاش فترتين مختلفين، عاش نصف عمره رجلا مغمورا، يدير شؤونه الخاصة، يبذل جهده في اكتساب لقمة العيش من الفلاحة؛ وعاش نصف عمره الآخر رجل تربية وتعليم وتسيير لدواليب المجتمع.

فتح عينيه على الدنيا والحياة لا زالت رتيبة تمشي ببطء، لم تقدر السلطة الفرنسية أن تُدخل في مجتمعه ولو قدرا يسيرا من مدنيته، ثم لما آلت إليه أزمة المجتمع، شعر بأن مياها تتدفق هنا وهناك، تفرض عليه أن يضع لها حلولا جلبا لمنافعها ودورا لمخاطرها.

ومن سنن الله سبحانه على هذا المجتمع أن شرح صدر هذا الرجل إلى سلوك المنهج الأمثل، الذي حدا ركبته رجال أفذاذ من سلفه أمثال الشيخين باحمد بن عيسى قزريط وبكير بن عمر موسى وعلي تلميذ القطب رحمهم الله جميعا.

لم يؤيد من يذهب إلى منع تعليم البنت وإضاءة المساجد بالمصابيح الكهربائية وتعليم التلاميذ جالسين على طاولات.

كما لم يناصر الذين يريدون دفع المجتمع إلى الانسلاخ من دعاة التمدن المبيحين لتقليد الكفار من اليهود والنصارى في عاداتهم وتقاليدهم وأعيادهم وزينتهم ومعتقداتهم.

وتحمل رحمه الله الأذى من كلا الفريقين: لأنه أيقن أنه هو المنهج الأمثل الذي لا محيد عنه.

ووجد أن أحسن وسيلة للتمكين لهذا المنهج هو أن يكون له حضور قوي في المسجد إماما للصلوات وواعظا، في الأعراس والمآتم، وفي الأعياد الشرعية والوطنية، يوجه وينصح، وفي فض النزاعات والخلافات...

كان بحق رجلاً كألف.

إن المقتنيات الصوتية للشيخ حفظت لنا وصية وجهها للطلبة في جلستهم معه في بداية التسعينات، قال لهم: "تعلموا العلم وتبحروا فيه، لا أمنعكم أن تصبحوا أطباء أو مهندسين أو قائدي طائرات... لكن الدين أوكد، الدين أوكد"

² - إقناع الأسماع للقريري 299/1 (من منهجية التربية الدعوية ص20)

3- العلم ولو يسيراً يقتضي العمل:

يقول د. عادل الشويخ في كتابه "مسافر في طريق الدعوة":

"ما أحلى تشبيه العلم بالشجرة. والعلم بالثمرة. فالشجرة قد تثمر، ولكن لا يمكن الحصول على ثمر من غير شجر. وكذلك العلم قد يتبعه العمل. والعمل لا يكون صائباً بغير العلم. ولكن فوق منزلة العلم المجرد منزلة تفوقها كثيراً وهي منزلة الشجرة المورقة المثمرة. شجرة العلم إذا أينعت بالثمر. ولذلك قيل: "العلم شجرة ثمرتها العمل".

وهذا هو الأصل في مكانة العلم. إذ أنه يقتضي العمل الصائب الصحيح الذي لا جزاء له إلا الجنة.

وقيل في علاقة العلم والعمل. ودليل اقتضاء الأول وجود الثاني:

"العلم والد والعمل مولود. والعمل إمام والعمل تابع. والعلم مع العمل كالرواية مع الدراية. ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصراً في العمل. ولكن اجمع بينهما وإن قل نصيبك منهما. العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل".³

ويقول الشيخ أبو يحيى خلفان بن جميل السيابي نظاماً⁴ (ولد سنة 1308هـ):

والعلم أشرف ما تسعى له قدم	لكن أشرف منه من به عملا
من لم يكن حاملاً علماً يعيش به	في الناس ذا أدب فليصحب الهملأ
من زاد علماً ولم يزد هدى وتقى	يزداد بعداً من الرحمان منخذلاً
فخذ بحظك من مكنون جوهره	واشربه في نهل إن شئت أو عللاً
وألبس له حلل التقوى فعاديتها	لا شك عار ولو قد ضاعف الحللاً

وإذا كان لابد للعلم أن يقود إلى العمل. فكيف السبيل إلى العمل بالعلم. وغاية العلم لا تنتهي؟

ومتى الوصول إلى المراد حتى يبدأ بالعمل؟ والعلم محيط واسع، وكلمات الله تعالى لا يكتبها مداد البحار

وإن امتدت، ولا أقلام الأشجار وإن سطرت، ولا تشبع منه البلغاء، ولا يستكفي منه العلماء...

فيقال هذا حق وصحيح.

ولكن على المؤمن أن يعمل بما علم، فالعمل يتجزأ وفق العلم، لأن العلم قابل للتبعيض، أي أنه من أجزاء

وأقسام، وكل قسم تجزأ بدوره إلى أقسام كالبحر الذي تؤخذ منه القطرة، وقد يؤخذ منه الإناء، وقد يؤخذ

³ - اقتضاء العلم العمل للخطيب البغدادي (من مسافر في قطار الدعوة ص55).

⁴ - بحجة المجالس، خلفان جميل السيابين ط1989/2 (وزارة التراث، سلطنة عمان).

منه الرافد الدفاق ، وهكذا العلم قد تؤخذ منه المسألة كما منه الباب ، وقد يتبحر المرء في الفن منه ، كما يكون فيه الفقيه البارِع.

وفي هذا يقول المصطفى ﷺ :

"بلغوا عني ولو آية ، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"⁵

والآية -يقول ابن حجر العسقلاني- تطلق على ثلاثة معان : العلامة الفاصلة ، والأعجوبة الحاصلة ، والبلية النازلة...

ويجمع بين هذه المعاني الثلاثة أنه قيل لها آية لدلالاتها وفصلها وإبانيتها.

وقال في الحديث -ولو آية- أي واحدة ، ليسارع كل سامع إلى تبليغ ما وقع له من الآي ، ولو قل ، ليتصل بذلك جميع ما جاء به النبي ﷺ⁶.

والنص واضح في ضرورة تبليغ العلم مهما قل ، ولا حجة لأحد بترك العلم ، بل لا عذر لأحد من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قدر الاستطاعة.

وتبعض العلم وإمكان تقسيمه لا يسهل عملية العمل فقط ، وإنما تبليغه للناس أيضا ، فهو يبلغ مسألة بعد أخرى ، وفنا بعد آخر ، حسب الحاجة إليه ، وظروف الدعوة ، وإمكان الاستجابة ، بل وإن التعمق في فهم النصوص والاجتهاد في المسائل لا يكون أيضا إلا بمراحل ، ولا يتم إلا بالتجزئة.

ولذلك قيل : "الاجتهاد ليس أمرا لا يقبل التجزئ والانقسام ، بل قد يكون الرجل مجتهدا في فن أو باب أو مسألة دون فن آخر ، أو باب ، أو مسألة ، وكل أحد فاجتهاده بحسب وسعه".

هذه المرتكزات العلمية بلغت الإمام حمو عمي سعيد واقتنع بها لأن فحول العلماء حققوا فيها الجواز ، أمثال العالم نور الدين السالمي في كتابه "بهجة الأنوار" والعالم في كثير من تحقيقاته ، رحمهما الله. فهب مشمرا لينقذ بعض ما يمكن إنقاذه... فلم يقعه علمه عن نفسه أنه لم يبلغ مرتبة العلماء في التحصيل والتحقيق ، وهذا ما يذكره بصريح العبارة في دروسه ولقاءاته بالطلبة ورجال الثقافة ؛ ولم يثن ذلك من عزمه ، فكافح الجهل والانسلاخ العقدي والبدع المحرمة ؛ وظهره في ذلك ما حققه العلماء غيره ، ينهل من ينابيعهم ، ويكفيهم مؤونة تبليغ علمهم لعامة الناس من فوق منبر المسجد أو من غيره.

⁵ - رواه البخاري في كتاب الأنبياء.

⁶ - فتح الباري، ج6، ص498، (من مسافر في قطار الدعوة ص56).

ولا غضاضة في هذا المسلك ما دام المرء ورعا في دينه، يقف في حدوده ولا يتجاوزها، ولا يدعي لنفسه ما ليس له، أو يقتحم حمى الله بغير علم، أو يتهجم على الفتيا بغير واضح سبيل.

4- التفاؤل وحسن الظن في الله:

أورد الداعية المعروف "محمد أحمد راشد" قصة طريفة في المقدمة التي كتبها للتعريف بكتاب الدكتور الداعية عادل الشويخ⁷ المسمى "مسافر في قطار الدعوة": "وقد استبد به الزهد في الكلام وإلقاء الدروس قبل سنوات، واشتكى من سلبية بعض السامعين وعدم مجاراتهم له من خلال الأسئلة الواعية التي تحرك المدرس عادة لمزيد من العطاء، حتى ذكر لي بأنه ينوي التوقف من الكتابة والكلام احتجاجا، فوجد عندي من هذا المعنى ما هو أكثر، واستولى علي التبرم وتعاهد علي السكوت، فساق الله إلينا شابا يخرجنا من الخطأ، إذ كنت أجلس مع عادل في مطار استطنبول تنتظر الطائرة قافلين من دورة لم نصادف فيها من أسئلة الدعاة ما يشجع، وإذ نحن نتبارى في التلفظ بمرادفات اليأس، إذ شاب يقبل علينا ثانيا ركبته، يسأل، قال لي: أنت محمد أحمد الراشد؟

قلت: نعم، هل التقينا سابقا؟

قال: لا، عرفتك من خلال رؤية فيديو كلمتيك في مؤتمر هيوستن بأمريكا.

قلت: ومن تكون؟

قال: اسمي خالد الموساوي، وأنا جزائري من أهل واحة وادي سوف على بعد ألف كيلومتر عن العاصمة جنوبا على مشارف الصحراء الإفريقية الكبرى قرب أقصى الحدود التونسية، ونحن هناك نقرأ لك ونسمع أشرطتك، ونرى دروسك من خلال الفيديو، وأنا ذاهب إلى...

رحبنا به، وأبدى سروره لهذا اللقاء على غير موعد، وسألني عن أمور وسألته: ثم تنهد مستدركا... قال: لكن مازال نصف حلمي لم يتحقق، لم أتعرف على عادل.

قلت له: فكيف بك إذا أنزلتك معي في دبي لأعرفك به!

قال: إذا يكون يوم عيدي، فنحن نسمع دروسه ولم نر صورته عبر الفيديو.

وهنا تدخل عادل فسأله عما سمعه من أشرطة دروسه دون أن يعرفه بنفسه، فعدد له عناوين دروس عديدة.

فسأله عادل ممتحنا: الدرس الفلاني ماذا يقول فيه؟

قال كذا وكذا، وأتى بمختصر معانيه على وجهها.

1- عادل الشويخ، عراقي، ولد سنة 1946، دكتوراه في فيزياء الجوامد (بريطانيا)، ماجستير في أصول الفقه (السعودية)، مقيم في الإمارات العربية المتحدة، توفي في

حادث سير 1993/07/24م

ثم امتحنه مرارا، يسأله عن دروس أخرى، والفتى يأتي بالمعاني على وجهها بإتقان أدهشنا. فقلت له بعد أن ازددت فراسة في صدق توجهه: إذن فهذا عادل أمامك، فهو الذي يمتحنك. فطار الفتى من الفرح وأذهلته المفاجأة...

ويقول الكاتب بعد تفاصيل:

هذه الحادثة هزت "عادلا" وجعلته يوقن بوجود مبلغين أدعى من سامعين، وعاد إلى التوبة من اليأس ومن الزهد بالكلام، وطفق يقول بعدها، نتكلم لأهل الغابات والواحات، إن خذلنا أهل الحواضر. التفاؤل يأتي من حسن الظن بالله تعالى، واليقين الراسخ بصدق ما أخبرنا به في كتابه العزيز، ويا لروعة النفوس الكبيرة التي تثبت في الزلازل والحن، التي تنطق جوارحها قبل ألسنتها بالتصديق "هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما" [سورة الأحزاب: 22]. وفي أتون الحن والبلايا تضرع إلى خالقها "مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب" [سورة البقرة: 214].

وما من شك أن المربين والدعاة والعلماء من أكثر الناس ورودا من حوض الحن لما يلاقونه من تعنت بعض المفسدين أو صدود وإمعان في الاستهتار بالقيم والشقاق وتنامي الأحقاد... فإن تسارع اليأس والقنوط إلى قلوبهم كسروا أقلامهم وأجمعوا أفواههم وقبعوا في زوايا الحسرة والبكاء.

ويقل في صفوف الدعاة من يبقى في حشاشته بصيص من الأمل والتفاؤل يغطي تعرضه لمحنة الصدود والإعراض وأحسنهم من يلتجئ إلى الله بالدعاء ليفك قيده ويتهم نفسه في إخلاصها، أو يعيد النظر في المنهج الذي سلكه لإيصال دعوة الله إلى الأنفس. ولأمر ما، يكون السؤال الملحاح الذي يوجه إلى المربين والدعاة إذا استعرضوا مسيرتهم التربوية والدعوية، هذا السؤال "هل أنت متاثر؟"

إن الإمام حمو عمي سعيد مسته الضراء، وعباً منها عباً، شأنه شأن كل العاملين في سبيل الله، هزته بعضها عزا عنيفا وأحاطت به العلل وأقعدته الفراش لشهور، وقد تصل إلى سنة أو أكثر... لكنه يعود إلى نشاطه المعهود فور ما يكشف الله سبحانه البأساء عنه، بل كان لا يريد اجتراح الماضي المحزن، ليبقى في نفسه سلافة من الأمل والتفاؤل:

وجه طلبة العلم في جلستهم معه، وجهوا إليه سؤالا ليقص عليهم ما قاساه في مسيرته وكيف استطاع أن يتجاوز تلك المعوقات، فرفض الإجابة عن السؤال رضا قاطعا، وقال لهم: "نعم أُلني كثيرا تنكر الإخوان وتخاذل الأصدقاء ومماحكات المنافسين والمناوئين، ولكنني كنت ألتجئ إلى ربي أستمد منه العون، نعم المولى

ونعم النصير" ولما رأى في أعين أولئك الطلبة سمات عدم الاقتناع بجوابه قال: "ماذا أدّخر للقاء ربي إن أنا حدثتكم بما تطلبون؟!"

إن ركيزة "التفاؤل" شدت ظهر الرجل شداً محكماً، وانبرى لا يلوي على شيء يكافح ويناضل، بل إننا كنا نعجب منه، وهو في أواخر أيام حياته، طريح الفراش، أنشبت أزمته النفسية فيه أظفارها، تنفر أذنه من سماع أي خبر سار أو ضار، لا يفتأ يسأل عن أحوال تدين الناس واستقامتهم، يوصي هذا بتحمل أعباء الدعوة، وذلك بتحمل أعباء الفتوى، وذلك بفض النزاعات، ...

ومن أروع المواقف التي تشهد له بالتفاؤل حتى يستنفذ كل الأسباب، لأنه يؤمن بالله تعالى ويحسن الظن به، موقفه الشجاع من بعض النافذين في الحزب الحاكم بعد أن نالت الجزائر استقلالها مباشرة؛ فقد سولت له نفسه أن ينتزع سلطة المسجد الكبير من أيدي حلقة العزابة...

تشاورت الحلقة في هذا القرار الجائر واستولى اليأس على الجميع، ورأوا أنه بلاء لا قبل لهم إلى رده، وحوقلوا واسترجعوا...

وكان من رأي الإمام عمي سعيد، أن يطلب من أصحاب القرار التفاوض وتلطيف الأجواء... ولما وجد العاملين معه لم ينشطوا لرأيه استأذنهم أن يقوم نفسه بذلك نيابة عنهم، فأذنوا له... ثم قام لهذا الأمر الذي يبدو في ذلك الوقت ضرباً من الانتحار، واستصحب أحد وجهاء القوم... وقد كلل الله سبحانه مساعيه بالنجاح، وألغى القرار.

5- الرفق في الأمور كلها:

قد تنسى المكانة المرموقة، والجاه أناساً، فيحتسبون أن المنصب الذي تأهلوا له يسمح لهم أن يأخذوا أتباعهم بالشدة ويعاملوهم معاملة السيد لعبيده يضيق عليهم الخناق ويلزمهم أشد الأقوال وأصعب الآراء. وهذا منهج منبوذ ضرره أكثر من نفعه. ولذا روي عن بعض العلماء قولهم: «... فلا بد من هذه الثلاثة: العلم والرفق والصبر، العلم قبل الأمر والنهي، والرفق معه، والصبر بعده، وإن كان كل من الثلاثة لا بد أن يكون مستصحباً في هذه الأحوال. وهذا كما جاء في الأثر عن بعض السلف.. لا يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا من كان فقيهاً فيما يأمر به، فقيهاً فيما ينهى عنه، رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما عنه، حليماً فيما يأمر به حليماً فيما ينهى عنه».

والرفق زينة العمل الصالح، والله تعالى يعطي على الرفق ولا يعطي على العنف، وهو الطريق إلى القلوب...

ولقد قال مولانا الكريم صلى الله عليه وسلم فيما يرويه الإمام مسلم: «إن الفرق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

وقال: «من حرم الفرق حرم الخير».

ويذكر عن المأمون -وهو على رأس الدولة العباسية- قوله لرجل وعظه وشدد عليه وعنف القول: يا رجل ارفق، فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شر مني، وأمره بالرفق: «فقولوا له قولاً لنا لعله يتذكر أو يخشى» [سورة طه: 44].

لقد سلك الرجل الإمام هذا المسلك، وقد كان له عوناً عظيماً على بلوغ أهدافه التربوية والدعوية. وانتقده بعض الناس ممن ألف التشديد وطلب العنت؛ واتهموه بتهوين الدين في الأنفس، وهم في هذا التهوين مخطئون؛ وكان يشدد النكير على من ينتهج منهج الفظاظة في الأمر والنهي وبخاصة مع البالغ الجدد. إن هذا المسلك هو مسلك العلماء الراسخين في العلم، يذكر الشيخ علي يحيى معمر في كتابه «الإباضية في موكب التاريخ»:

1. «حدث جماعة من المشايخ أن أبا مهاجر خرج مئة من ألفين إلى البارية في أوان الربيع، هو وعمرو بن فتح رحمهما الله، فلبثا أياماً كل على غير ماء في بركة من الأرض، لا يجدون ما يتوضأون به، إنما كانوا إذا حضرت الصلاة تيمموا وصلوا»

وتكدر خاطر أبي مهاجر لذلك، حتى قال ذاتاً لهذه الحالة: «قلوب تربو عليها الشحوم فما سمت، ووجوه تعلوها الغبرة، قلت مكانة الدين مع أهل الورى إنما الدين في المدر».

والله لا يجمل بنا أن نترك الدين لاتباع الشهوات، وإنني لأخاف أن أكون ممن عاب الله عز وجل فقال فيهم: «أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً» [مريم: 59].

فرد عليه الشيخ عمرو بن عمرو يقول: «ليس في ذلك ما تخافه، فقد أباح الله التيمم عند الضرورة، فأبان ذلك في كتابه وعلى لسان نبيه وذلك في ابتغاء الفضل، وقطع الفيا في والمجاهل من الأرض، وقال: «وابتغوا من فضل الله» [الجمعة: 10] وقال: «عابري سبيل» [النساء: 43] وقال: «فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً» [النساء: 43].

ولم يقنع ذلك جميعه أبا مهاجر، بل ارتحل راجعاً إلى منزله.

2. سأل رجل عمرو بن عمرو، بمحضر أبي مهاجر عمن أخذ من مال ابن طولون خرجاً فتاب، ولم يعلم له صاحبه، فقال الشيخ عمرو بن عمرو: «تسأل عن مولاه، فإن أعيك أمره فتصدق به».

فغضب أبو مهاجر فقال : « لا أقعد في مجلس يُفتى فيه بمثل هذا ».

فقال الشيخ عمروس : « إن أردت أن تقعد فاقعد فإن من شأن المسلمين أن لا يؤثسوا أحدا من رحمة الله ». يجدر بنا أن نشير إلى أن عمروس : « فإن أعيانك أمره فتصدق به » يراد بهذا الكلام إخراج مال الغير وفصله عما يملك المرء تنصلا وتخلصا وليس ابتغاء الثواب والأجر ، ومحل هذا المال المجهول أربابه هو فقراء المسلمين وليس أغنيائهم. فمن خلال هذه الحادثة والحادثة التي سبقتها تظهر شدة أبي مهاجر - كما يقول الشيخ علي يحي معمر - فهو يرى أنه يلزم صاحب الخرج أنع يبحث عن صاحبه أو ورثته مهما كلفه الأمر ، ولن يبرئ من التباعة غير ذلك.

أما عمروس فقد كان أعمق فهما لأسرار الشريعة وروح الإسلام ، والعمل بمقتضاه¹.

خاتمة:

تغمده الله سبحانه برحماته الواسعة كل علماء الأمة العاملين المخلصين لله ، الذين أسلموا وجوههم لله ، وخدموا دينه وجاهدوا في سبيله ، وبذلوا النفس والنفيس لمرضاة ربهم...

ورحم الله الإمام الشيخ حمو عمي سعيد فقد كان حقاً رجلاً فذاً ، حباه الله تعالى بصفات قل أن تجتمع في شخص ، "ولله جنود السموات والأرض".

إن حياة الإمام المليئة بالعبر ، وهي منارات للسالكين...

ولا يظن ظان أن المرتكزات التي كانت السند للرجل الإمام هي حكر عليه لا تتعداه أو أنني استوفيت الكلام عن هذه المرتكزات بل هذا غيض من فيض لأن البحث لا زال في بداياته.

وإنني أعتبر كلامي لبنة لبناء أسس الدعوة ومواصفات الدعاة عن أهل الحق والاستقامة ، والمكتبة الإسلامية فقيرة لمثل هذه الكتابات والإسهامات لتجسد بذلك شعار هذه الأيام العلمية... مسيرة علمية تربوية رائدة ومتواصلة.

"ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم"

"ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم".

والسلام عليكم ورحمة الله.